

الفصل السابع عشر التراجم العامية للرباعيات والمفهوم الشعبي لفلسفة الخيام

كان منطقياً أن تترجم رباعيات الخيام إلى اللغات الفصحى العالمية، وأن تتناولها التراجم بأفصح لغة وهي الشعر، وأن يتصدى لترجمتها مفكرون وشعراء كانوا أقرب في نظراتهم للحياة وفلسفاتهم وأسلوبهم في تناول الأمور وشخصياتهم من الخيام.

غير أن المثير للعجب حقاً هو نقل الرباعيات إلى اللغات العامية الدارجة، لأنه بالنظر إلى الأفكار التي فيها، والتمرد الذي تضحج به سطورها، والإشارات الصريحة والمضمرة من الفكر أو الفسوق التي تمتلئ بها، والدعوات الباطنية التي غلقتها - فقد كان الأولى أن تُختار لها أفصح اللهجات، وأبين اللغات، وأن توضع ضمن أفضل السياقات، ويكون لها أبهى الديباجات. إلا أن ترجمتها شعراً غنائياً من طريق أحمد رامى وإنشاد أم كلثوم - وذلك كما نعلم أول تجربة من نوعها على مستوى العالم، ولم تخطر على بال ملحن أو مغنٍ في إيران نفسها موطن الخيام - استحثّ الزجالين أن يترجموها شعراً عامياً.

ويبدو أن شعر الخيام يتداوله الناس في إيران كالحكم الشعبية، ويضربون به الأمثال. وكما قيل على المستوى الشعبي - إن الخيام قلندرى - والقلندرية صوفية بهم حكمة، وهم الزاهدون في الدنيا ولكنهم لا يمتنعون عن مباحها. ووصف الخيام نفسه في إحدى الرباعيات المزيفة والذائعة عنه أنه قلندرى - يعنى لا يريد من حطام الدنيا شيئاً، ولا يتمنى هماً، ويتحاشى منها الأثم وما يكتر.

وهذه الصفة الذائعة عن الخيام - أنه قلندرى - يبدو أنها التي أعجبت شعراء العامية فيه، فكانت هناك ثمانى محاولات عامية لترجمته، ثلاث منها مصرية، وواحدة لبنانية، وأخرى أردنية، وثلاث عراقية.

والملفت للنظر أن هذه المحاولات تمت لشعراء لهم دعوى في الأدب وطموحات وكانوا بشكل ما قلندرية كذلك.

والتجربة المصرية خصوصاً تستحق أن ينوّه بها، وأن تُرصد نتائجها وآثارها. وقد يكون من اليسير على شاعر الفصحى أن ينقل مباشرة عن الفارسية، أو أن يترجم ما استوعبه من لغة وشعر الإنجليزي فيتز جيرالد الذى جعلوه نموذجاً لهم، إلا أن شاعر العامية غالباً محروم

من هذا الاستشراف الثقافي، وذلك فهو ينقل عن الناقلين إلى العربية، وكأننا الآن حيال ثالث نَقْلَة. واستمرار النقل، وابتعاد المنقول عن الأصل، يقفد الرباعيات الكثير من أصالتها، ويضيع به الكثير من بهائها ووضاحتها، وتنحط معانيها وتبتذل، وتُضَاف إليها مشاعر وأحاسيس، وصور وأفكار، واستعارات وكنائيات، وتشبيهات وكلمات وحِكم، وخبرات واتجاهات وأحوال نفسية، لم تكن فيها، فالشاعر هو شِعْرُهُ، والأسلوب هو الشخصية، ولكل شاعر أدواته ولغته ووضاعته وشخصيته وثقافته. وكل ناقل ومترجم لابد أن يختلف تعبيره باختلاف ما يفهمه. وما يفهمه سيختلف قطعاً لاختلاف زاوية رؤياه.

وهناك فرق بين الترجمة للفصحى والترجمة للعامية، فشاعر الفصحى يهمن أن يطبع شعره بطابعه المتفرد وانتقائه البلاغية. وشاعر العامية طريقتة تبسيط المعانى وتسطيحها، والنزول بلغة التعبير إلى المستويات الشعبية. وتختفى شخصية الشاعر الشعبي فيما يكتب ويعبر وينقل، لتظهر شخصية الشعب نفسه الذى يكتب له بلغته. ولسوف نرى أن شعراء العامية قد أجهدوا أنفسهم لينقلوا أجواء الرباعيات وروحها من البيئة الفارسية إلى الجو النفسى العام لبلادهم، وإلى المناخ الثقافى أو البيئة الفكرية التى تعينها شعوبهم

ويذهب الناقد الدكتور هز الدين إسماعيل إلى أن تجربة نقل الرباعيات إلى الشعر العامى قد يتأتى بها إشهار الرباعيات على المستوى الشعبى العربى، أو المستوى المصرى بخاصة، بالنظر إلى أن الترجمة ستجعلها متداولة فيتناقلها الناس كالمواويل، ويفنونها. إلا أن نبوءة الدكتور لم تتحقق ومرّت التجربة ولم يشعر بها أحد، أو حتى ينتبه إليها. وربما كان السبب - فيما أرى - أن اللغة كوماضى حضارى يتعين ارتقاؤها تبعاً لارتقاء الحضارة وشمولها، ويتمين عليها أن تُدمج فيها مصطلحات الحضارة ورموزها اللغوية. ومقياس ارتقاء اللغة هو قدرتها على التعبير عن حاجات الحضارة المادية والروحية والنفسية والذهنية، وعن أدقّ الخلجات وأعدد الأفكار للمواطن العادى.

والعامية لم يسبق لها أن طرقت مجال الفلسفة لتكون لها أنواتها ومفرداتها ومصطلحاتها. وشعراء العامية فى مجال الفلسفة بضاعتهم اللغوية رخيصة، ونجاحهم فى النقل للمعانى الكبيرة والترجمة للهمم العالية، والنفوس المعذبة، والأفئدة المكسورة، والعقول الموجودة، والشخصيات الأسيانة، القلقة والمهمومة بالوجود أشدّ الهمم، لا يمكن إلا أن يكون محدوداً للغاية.

ومع ذلك تبقى تجربة العامية للرباعيات تجربة فريدة تستحق أن يشاد بها.

المحاولة العامية لترجمة الرباعيات للشاعر حسين مظلوم

كان حسين مظلوم رياض من شعراء العامية المشهود لهم بالبراعة. وقام سنة ١٩٤٤ بترجمة ١١٥ رباعية عن ترجمتى السباعى والبستانى. ومن الطريف أن الشاعر محمود رمزى نظيم قد ذكر فى محاولته أن مظلوماً حرص على إظهار النزعة الصوفية للخيام. وملحوظته غير صحيحة، لأن مظلوماً نفسه ينفى أن يكون الخيام صوفياً، وينقل عن السباعى أن خمرة الخيام لم تكن الخمرة الإلهية التى يعنيها الصوفية، وإنما هى عصير العنب المتهدل من كرومه، يُعَصَّر سائلاً مرشوفاً من أقداح البلور فى مجالس الشراب مع النذمان. ويبدو أن النقاد استقبلوا محاولة مظلوم بالحفاوة، وقالوا فيها إن الشعر الشعبى قد أثبت أنه صالح لنقل معانى الرباعيات والاتساع لها، لأنه لا يتقيد بقافية، ولا يقف عند حد من الأوزان.

ويهمنا رأى مظلوم فى اللغة العامية - لغة الناس العاديين وأولاد البلد. ووصفها بأنها لغة الوجدان والعواطف، لأن الناس فيها شركاء، وأنها تنبع من حاجاتهم، وتعبير عن آلامهم ومشاعرهم، ومن أجل ذلك لا يتكلمون فيها ولا يتمكّنون.

ويبدو أن ما أعجب النقاد فى لغة مظلوم فى رباعيات الخيام أنها رغم شعبيتها إلا أنها تتسامى فى تعبيراتها العامية. وقد وصفها كامل الكيلانى فقال إنها لتدنو من أسلوب الفصحى، وتعلو عن العامية بآناقتهما وتجويدهما، وتذكرنا بالفنون الرائعة التى أبدعها أقدان الزجالين من شعراء الأندلس فى موشحاتهم ومقطوعاتهم ومواويلهم الساحرة.

وذهب ناقد آخر هو مصطفى الصباحى إلى أن ما جذب مظلوماً لترجمة الخيام هو أن مظلوماً نفسه فى حياته شبيه بالخيام، وما أحرى الشبيه أن يفهم شبيهه. وكانت صياغة مظلوم للرباعيات فى ثلاثة أناشيد. يقول فى النشيد الأول:

خلى أهل العلم فى الدين والحوار، فى جدالهم يقطعوا الليل والنهار
والنتيجة نخوض بحار من غير قرار، بعدها الموت راح ييجى يهدم آمال
فيه نهوض من بعد ما يطوى الأثر؟

ويقول في النشيد الثاني:

ممن عرف سر الوجود والآ العدم؟ في اللي مايشين واللى ماتوا من القدم
يحسبوا الروح عند تحديد الهمم. هي كوكب، نوره ساير، مستحيل تعرف له آخر
سرّ فوق إدراك عقول العارفين!

ويقول في النشيد الثالث:

يا كريم بابك قصدناه بالخضوع. جود بمطفك باسميع
كم يساوى قلب لم يعرف خشوع! هبدك التايب مطيع
كم تساوى عين بخيله بالدموع. البكا أكبر شفيع
والندم فيه اعتراف لك بالرجوع للصواب
والعفو غاية كل تايب!

(٢)

الترجمة العامية لآثر ضو

ترجم الشاعر ٧٥ رباعية سنة ١٩٦٢ عن فيتز جيرالد. ويقول إنه نقلها الى العامية اللبنانية، لأنه يفكر ويتكلم ويسمّي الأشياء ويجيب النداء بما يسميه اللغة اللبنانية، «لأن إحساسى أولاً يبعث رسائله إلى ذهنى باللغة العامية، وثانياً لأنى وجدت فى اللغة اللبنانية وتعاييرها طينة أقرب لما احتجتُ إليه من طينة اللغة الفصحى، فكلّ منا له طريقته الخاصة فى التعبير عما يريد، وفى اللغة التى يريد، ولا فرق عندى بين اللبنانية والفصحى إلا بمقدار ما تساعدنى إحداهما فى الوصول الى ما أريد التعبير عنه».

وكان الشاعر يريد أن يقول إنه يجد نفسه فى العامية أفضل، وأنها فى مجال ترجمة الخيام أوفى من الفصحى وأقدر على احتواء معانى الرباعيات. والغالب أنه يقصد أن هذه هى قدرته اللغوية والأدبية على ترجمة الخيام، وأنه يستطيع فى العامية أن يعبر بها عن الفصحى لتمرسه اليومي والشعبي على التخاطب بها.

ولأن هذه هى قدرة الشاعر واتجاهاته من الفصحى فإنه فعلاً يغير من الصور فى الرباعيات ويجعلها شخصية ويرسمها باعتباره لبنانياً أولاً وأخيراً، وكأنى به «يلبّن» الرباعيات ويعطيها الطابع والنكهة اللبنانية.

يقول:

فيقوا! جيوش الشمس في ساح النزال، هزموا جيوش الليل واحتلوا الجبال
قلبوا العثم لَ فيّ وادى روى، ومثوا لبرج القصر بالمرج خيالاً

هون فيه فخصن ومحزذ نبيت، ورغيف خبز وبختر وريشة وقصيد
وانت حدى عمّ تغنى بها لفلأ، الفريوس هونى قد ما قلبى يرويد

ذاتى برغبة لفيت في عهد الشباب، ع عالم وقديس واجدل وخطاب
تسمعت لكن كل مره زرتهن، مطرح ما فت طلعت من ذات البواب!

لقيت باب ويس ما قدرت الدخول، وحجاب خلفه تحرم ليعنى الوصول
هنى وهنك قول في بره انحكى، بره وبعدا بطل القايل يقول!

الإصبع اللى خط والدائم يخط، ما فيك قوه تجبره يكتب ظل
لا الدمع يحزف حرف من بين الحروف، ولا العلم يقدر يقنمه يغير نقطا

(٣)

الترجمة العامية لأحمد سليمان حجاب

ترجم الشاعر ١٨١ رباعية عن رامى إلى العامية المصرية سنة ١٩٧٥، وكتبها على منواله،
ومن الممكن لذلك المقارنة بين أداء العامية وأداء الفصحى، طالما أن الأبيات واحدة ومضمونها
واحد.

يقول رامى:

سمعت صوتاً هاتفاً فى السحر نادى من العان غفاة البشر
هبوا املوا كاس الطلى قبل أن تقعم كاس العمر كف القدر

ويقول حجاب:

سمعت صوتاً فى السحر بينادى ع النائمين • بيصحنى أهل الهوى وينبئه العاطلين
إملوا كاسات الصفا واتهنوا بأيامكم دنيا زوال تنتهى وأهل العقول عارفين!

ومن أقوال حجاب:

أوصيكم يا أهل الهوى لو عشتوا ليل بعدى * ونا فوق تراب العدم نائم هنا وحدي
من كأس هوانا اشربوا وافتكروا أيامى * ورشوا خمر الهوى من فوق تراب لحدى!

جيت فى الوجود بالقدر ما حدّ خد شورتى * ويكره برضه القدر يمسح فى يوم صورتى
من طين لطين يا قدر أصبغ وأتمشى * يا رب أمرك وجبّ إيه راح تفيد حيرتى!

ورد الربيع اتبسم بينادى أحبابه * والروى لأهل الهوى مفتوحه أبوابه
يا لاهى شوف واعتبر بالورد واستمبر * قدرة إله مقتدر تقراها فى كتابه!

يا ذى الجلال والنعم يا مبدع الاكوان * هيدك ضعيف معترف بالمجزى يا رحمان
فى كل شئ يعبدك ويعود إليك نادم * انت الإله الصمد والعبد دا إنسان!

(٤)

الترجمة العامية لمحمد رجا

صاغ الشاعر ١٠٦ رباعية سنة ١٩٧٥ عن الترجمة النثرية لتوفيق مفرج الذى ترجمها بدوره عن فيتنز جيرالد. واختار رجا لنفسه البحر البسيط المناسب للموال المصرى لكى يكون أقرب إلى الروح الشعبية.

ويقول الأديب يحيى حقى فى محاولة رجا العامية إنها ستحتفظ بمكانة مرموقة من بين الترجمات العديدة للخيام. والجدير بالذكر أن يحيى حقى يعد من المعجبين بالخيام كثيرا، ويقول إنه يشده إليه ويؤثر فيه، ولذلك فكل صورة جديدة من صور ترجمات الرباعيات محببة إلى نفسه.

ومن رأى الدكتور عز الدين إسماعيل أن نص الخيام نص فلسفى قبل كل شئ، والصياغات الزجلية التى قدمت للرباعيات مثل ترجمة محمد رجا هى باب جديد تدخل منه الرباعيات إلى الميدان الشعبى الفسح، وهى مرحلة تاريخية جديدة فى حياة هذا الأثر الأدبى العالمى.

يقول رخوا:

الدنيا أهظم رواية كتبها رب الكون * كتب فصولها وصورها وزادها فنون
واختار لها م النعم آيات من الإبداع * والى يشوقها يعيش بها هليم مفتون!

بنيتنا تشبه محطة قطر للأفراب * بتودع الرايحين وتجمّع الأحباب
نؤارها نؤار كثيره وتخسوا فيها سنين * آخرتها سافروا وقابوا ضباب مالهش إيابا

آخر وليد اتولد أصله الحقيقي طين * وابونا اسم ومنا خلقوا ملايين
واللى انكتب للوجود فى فجر يوم خلقه * راح يتقرى م الكتاب يوم الحساب والدين!

كم مره أحاور حكيم فى مجلس الحكما * وبفلسفة علمهم أبحث مع العُلما
وفى كل مره انتهى فى بدايتى م الأول * وكل باب نبخله أخرج أنا ومنا

يا رب خالق لنا دنيا الجمال زاهيه * والخلق من ضلعهم ف المعصيه لاهيه
واللى يزيد العجب إن القضا محتوم * فى كتاب يسجل ننوينا الضخمة والواهيه

الموت قدر وانكتب على كل حسى * إن كان ونا أى يوم أو مكان حيّ قابل الإنسان
ومدام مسيرنا حانرجع للقرب تانى * إسقونى كاس الهنا ليكون مصيرى حان
